المورد

مجلة تراثية تصدر سنوية محكمة
المجلد الرابع والعشرون، العدد الاول ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م

WWW.ATTAWEEL.COM

أسماء الكتب

تصدرها دار الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ جمهورية العراق

الطير في حياة الحيوان للدميري

تعقيب: عزيز العلي العزي

بغداد- حي حطين ٥/١٢/٦٢٠

في العدد الاول لسنة ١٩٩٢ من مجلة « المورد » كتب الباحث التراثي الزميل عادل محمد علي الشيخ حسين عرضاً للجزء الاول المحقق من كتاب « حياة الحيوان الكبرى » للدميري في موضوع الطيور ، وقد صدر هذا الجزء بتحقيقي عام ١٩٨٦ بعنوان « الطير في حياة الحيوان للدميري » . وكان عرضه في الحقيقة ملاحظات ابداها على بعض ما جاء في تحقيقي للجزء المذكور من اشياء ظنها قد فاتتني . وانني اذ اشكره على ملاحظاته التي تدل على اهتمامه بما جاء في هذا الكتاب ، اراني ملزماً بالرد والتعقيب عليها . وتيسيراً لمتابعة هذا التعقيب فانني سأورده فيما يلي مرقماً حسب الترقيم الذي وضعه هو واتبعه في عرضه .

١) التعريف بعصر الدميري

لااري كيف فات السيد عادل انني قد عرفت القارىء بعصر الدميري في ص ٢٨ من المقدمة تحت عنوان« حياة الحيوان في الميزان » وبينت انه كان عصر انحطاط في شتى مناحي الحياة ، لكنه من ناحية اخرى تميز في جانبه الثقافي بظهور علماء موسوعيين كالقزويني وابن خلدون والقلقشندي والمقريزي والدميري ، وذكرت مؤلفاتهم الموسوعية ومنها « حياة الحيوان الكبرى » للدميري .

٢) مآثر الدميري في علم الحيوان

قال السيد عادل وقد جعل التكافل علماً « وللدميري فضل السبق في الحديث عن هذا العلم . وهو لم يذكره بعبارة عارضة بل سجل ما يثبت هذه الظاهرة التكافلية بما لايحتمل تاويلاً . . . . » .

قلت: لقد اشرت اشارة عابرة الى هذه الظاهرة التكافلية عند كلامي على طائر التمساح(ص ٦٢-٦٥) . اما الاشارة المفصلة فليست في الجزء الاول الخاص بالطيور بل في الجزء الثالث المحقق منه الخاص بالزواحف والبرمائيات الخ . (ولايزال مخطوطاً لدي) في معرض الكلام على التمساح . فقد ذكر الدميري هذه العلاقة وتكلمت أنا عن طبيعتها وعن انواع طائر التمساح . اي الذي ذكرت هذه المآثرة للدميري ، وسوف يجدها السيد عادل في موضعها من الجزء الثالث المحقق عند نشره ان شاء الله

اما أكبر مآثرة للدميري في رأيي فتتلخص في تاليفه كتابه « حياة الحيوان الكبرى » . فهو مدونة في التاريخ الطبيعي يصف فيها الحيوان وطباعه وبيئته فيصيب مرة ويخطيء اخرى ، وهو معجم باسماء الحيوان ومرادفاتها بضبط اسماء الحيوان بالشكل ، وهو كتاب فقه يذكر حكم الشريعة في تحليل او تحريم كل حيوان منها ، وهو موسوعة في الادب والشعر والتاريخ والامثال وتعبير الرؤيا ، واخيراً هو كتاب في مفردات الادوية الحيوانية واستخدامها في العلاج في الطبين البشري والبيطري . وقد بينت كل ذلك في ص ٢٨-٢٩ من مقدمتي للجزء الاول . ثم اشرت في ثنايا الكتاب الى صوابه ان كان مصيباً والى خطئه ان كان مخطئاً . وقد استشهد الكاتب السيد عادل بنص نسبه الى الدميري في سبب تحريم اكل لحم التمساح ، وهو « ان الشرع يبيح اكل لحوم الكائنات البحرية قاطبة الا ان التمساح ليس من هذه الكائنات ، اذ انه من اللواحم الارضية التي عادت الى الماء . واللواحم الارضية لايؤكل لحمها » ثم عقب على هذا النص بقوله « وهو بذلك يشير هنا الى احد الاطوار البائدة من حياة التمساح ، والتي لم يعرفها العلم الا حديثاً » .

قلت: لم اعثر على مثل هذا النص في مادة « تمساح » في الطبعة الموجودة عندي من « حياة الحيوان الكبرى »(١: ١٦٣-١٦٤ » فلعله مدون في الطبعة الموجودة لدى الكاتب . لكن الذي عثرت عليه كان اشارة مشابهة في مادة « حية » . قال الدميري « والحيات في اصل الطبع مائية وتعيش في البحر

بعد ان كانت برية ، وفي البر بعد ان كانت بحرية » (١: ٢٧٧) .

ومع ذلك فان ملاحظات السيد عادل كانت على نصوص تتعلق بالزواحف ، وهي ليست من مواضيع الجزء الاول الخاص بالطيور بل في الجزء الثالث (لايزال مخطوطاً) حيث استوفيت الكلام عليها بالتفصيل .

٣) اثر كتاب حياة الحيوان في الحضارة الانسانية

ذكر الكاتب انني لم اوضح هذا الاثر الذي يمكن تحديده بعدة نقاط منهجية هي:٣أ) ان الدميري اول من تناول الحيوان من زوايا متعددة الخ . . . وقد فات الكاتب الفاضل انني قد اشرت في مقدمتي وتحت عنوان « منهاج الدميري في حياة الحيوان » (ص ١٢-١٥) الى انه تناول الحيوان من زوايا متعددة: لغة وشريعة وادباً وطباً وتاريخاً طبيعياً ونحو ذلك من امور . ثم عدت فذكرت ذلك ايضاً في المقدمة وتحت عنوان « حياة الحيوان في الميزان » (ص ٢٨-٢٩) . فليرجع اليهما ان شاء .

٣ب- قال السيد عادل ان الدميري اهتم بعلم الاحياء الجغرافي ، وجاء بمثلين على قوله ، هما انسان الماء او الشيخ اليهودي ، والخطاف او السمك الطيار .

قلت: ان هذين الحيوانين ليسا من مواضيع الجزء الاول الخاص بالطيور . فانسان الماء من اللبائن وقد تكلمت عليه في الجزء الثاني المحقق والخاص باللبائن والذي لايزال قيد الطبع لدى دار الشؤون الثقافية منذ اوائل عام ١٩٨٨ . اما الخطاف فمن السمك ، وكان كلامي عليه في الجزء الثالث الخاص بالزواحف والبرمائيات والسمك الخ . . . والذي لايزال مخطوطاً عندي .

٣جـ- ذكر السيد عادل ان الدميري عني ببيئة الحيوان وطباعه وغذائه ، واستشهد على ما ذكره بامثلة من كتاب الدميري هي الخفاش والقنفذ والبوم والنعامة والدب .

قلت: اما ما استشهد به الكاتب من امثلة فاني قد ذكرت اثنين منها في الجزء الاول المحقق بنصه تقريباً وعلقت عليه . فقد ذكرت البوم واثبت قول الدميري فيه نقلاً عن الجاحظ « وبعض هذه الطيور يصيد الفار وسام ابرص وصغار الحشرات . . . » (ص ٥٤-٥٦) . وذكرت النعامة في الجزء نفسه (ص ٢٣٨-٢٣٩) لكني لم اعثر فيما قاله الدميري فيها على وصفه اياها بانها « جمل الصحراء » حسب رواية الكاتب ، لذلك فاني لم اثبت هذه العبارة في الجزء الاول اما الخفاش والقنفذ والدب فمواضعها في الجزء الثاني المحقق (قيد الطبع) الخاص باللبائن . فقد ذكرت فيه الخفاش .

واشرت الى كلام الدميري المختصر على ما يعرف في علم البيئة بسلسلة الغذاء وتكلمت على القنفذ في الجزء نفسه ، لكني لم اعثر على النص الذي نسبه الى الدميري وهو « حيوان شوكي يتغذى بالحيات والحشرات » بل عثرت بدلاً منه على قوله« وهو مولع باكل الافاعي ولايتالم لها » . وذكرت الدب ايضاً واتيت بقول الدميري في سباته الشتوي .

٣ د- قال الكاتب ان الدميري وضع كل حيوان في موضعه الصحيح من الشجرة الحيوانية . . . وبذلك فقد سبق كارل لينيوس الذي قيل انه اول من وضع التصنيف الحديث للحيوان والنبات .

قلت: نعم انه فعل ذلك في معظم انواع الحيوان ، لكنه ايضاً جعل الزوبيان والحوت والسمنقور والدلفين والتمساح والعنبر من السمك ، في حين انها من القشريات واللبائن والزواحف . وادخل الجراد البحري في عموم انواع الصدف مع كونه من القشريات . وجعل الافاعي والحيات والجرذان واليربوع والضب والحرذون والقنفذ والعقرب والخنفساء والوزغ والنمل والحلم في عداد الحشرات ، في حين ان ليس فيها من الحشرات حقيقة غير الخنفساء والنمل ، اما البقية منها فمن اللبائن والزواحف والعنكبوتيات . وهناك من هذا القبيل امثلة اخرى لايتسع لها المجال في مثل هذا التعقيب . وسبب كل ذلك فيما ارى ، ان الدميري استخدم في اقواله وتعريفاته المصطلح اللغوي في تعريف الحشرات والسمك والطير ولم يستخدم المصطلح العلمي . لذلك فان ما قاله الكاتب بشان الدميري قول فيه نظر ولايمكن الاخذ به على علاته . والانسب منه ان نقول ان الدميري اصاب واخطا فجاء في كتابه . بحقائق واوهام . وبذلك ننصف الرجل ونضعه في موضعه الذي يستحقه من غير ان ننتقص من مكانته شيئاً .

٣ هـ- قال السيد عادل « زود الدميري المكتبة العربية لعلم الحيوان بثروة من الاسماء . . . سواء في ذلك الحيوان البالغ او صغاره ، واسماء الذكر والانثى ، كما افاض في تسمية الانواع . . . . وقد تضمن بعض الاسماء الغريبة . . . »

قلت: هذا من تحصيل الحاصل فاي جديد فيما قاله . لذا ارجو السيد عادل ان يرجع الى ص ١٢-١٥ من مقدمتي لكتاب الطير في حياة الحيوان ، والى الفقرة ٣ من هذا التعقيب .

٣ و- قال الكاتب « استعان بكتابه هذا كثير من علماء الاجناس البشرية الاوربيين . . . . في تحديد مواطن الجنس السامي في الشرق حسب توزيع الحيوان الجغرافي » .

قلت: موضع الانسان في الجزء الثاني الخاص باللبائن (قيد الطبع) ، وقد ذكرت فيه سلالات البشر ومواطنها .

٣ ز- ما قاله الكاتب عن تقدير علماء الغرب للدميري صحيح كله .

٣ ح - وماقاله عن تسطير الدميري في كتابه مادة علمية غزيرة صحيح ايضاً ومفهوم ضمناً (انظر ص ١٢-١٥ من مقدمتي للجزء الاول) .

٤) الدراسات العربية لكتاب حياة الحيوان

قال السيد عادل انني لم اذكر من هذه الدراسات غير مقدمة الاستاذ محمد الحانق في مصر لكتابه « المختار من حياة الحيوان » ودراسات د . جليل ابو الحب لمجاميع الحيوان في كتاب «حياة الحيوان الكبرى » ثم ذكر السيد عادل عدداً من الدراسات العربية لهذا الكتاب لم اثبتها ضمن مصادري في التحقيق .

قلت: ما ذكره السيد عادل حق يجب شكره عليه ، فانني لم اطلع على تلك الدراسات وان كنت قد سمعت بها اثناء قيامي بتحقيق الكتاب . وسبب عدم اطلاعي عليها ارتباطي بعملي الوظيفي البحثي في هيئة البحوث الزراعية خلال ساعات الدوام الرسمي حين تكون المكتبات العامة مفتوحة الابواب للمراجعين . فاذا انتهت ساعات الدوام أغلقت ابوابها . وبسبب هذا التعارض في الاوقات فانني اضطررت لاخذ اجازات اعتيادية كثيرة جاوزت فيها الحد المسموح به من اجل مراجعة تلك المكتبات اثناء ساعات الدوام الرسمي . والى ذلك اشرت ملمحاً في ص ٢٦ من المقدمة بقولي« ومما لاشك فيه ان هناك دراسات اخرى حول حياة الحيوان دونت بلغات اخرى غير ما ذكرت لكنني لم اطلع عليها ولم اسمع بها . وحسبي في هذه الدراسة انني اثبتُ فيها ما اطلعت عليه » . وكانت الدراسات العربية التي اشار اليها السيد عادل من ضمن تلك الدراسات لذلك مضيت قدماً في تحقيقي الكتاب عملاً بقاعدة « ما لايدرك كله لايترك جله » فكان الجزء الاول منه ثمرة ذلك التحقيق ، وهو موضوع هذا التعقيب .

٥) تحقيق اسماء بعض الطيور

يرى الكاتب الفاضل في هذا القسم أن بعض انواع الطيور التي حققت اسماءها او ذكرت شيئاً فيها قد لاتكون هي المقصودة . وهذه الطيور هي: الباقمة ، البغاث ، البوه ، الخطّف ، الدقيش ، ابو زيدان ، الصعب ، الطبطاب ، القبيط ، النعبوق . وقد استند في كل ملاحظاته على كتاب « الموسوعة في علوم الطبيعة » من تاليف ادور غالب .

الباقمة: ما قلته من انها قد تكون « الذعرة الصفراء » صحيح وصواب ، واستندت فيما قلته على قول الدميري نفسه فيها انها« طائر حذر » وعلى وصف مايدرتزهاكن اياها في كتابه « طيور مصر » بانه كان يشاهدها ربيع كل سنة وهي تملو وتهبط عند اصطيادها ذباب المستنقعات في منطقة الفيوم . اما تعريف الباقعة الذي ذكره ادور غالب واستشهد به السيد عادل فهو تعريف عام لايحدد نوعاً بعينه من الطيور ، وقد استند فيه غالب على عبد الله البستاني الذي استند بدوره على الفيروز ابادي حيث قال « الباقعة: الطائر لايرد المشارب خوف ان يصاد ، وانما يشرب من البقعة وهي المكان يستنقع فيه الماء » (القاموس المحيط ٢: ب ق ع) .

البغاث: ما قلته من ان البغاث-نسر غير محدد النوع او انه الحدأة قول صحيح . ولم احدد نوع النسر لانني لا املك ما استند عليه من معلومات تعينني على مثل هذا التحديد ، وما دمت لا املكها فانني لااستطيع الرجم بالغيب . تسمية تلك النسور بانواعها كما فعل ادور غالب فاجتهاد منه قد يخطيء فيه وقد يصيب . ولايمكنني الاخذ به مالم يكن له سند قوي من وصف او لغة او نحو ذلك من معلومات .

البوه: اخذ عليّ السيد عادل انني لم اعط معلومات وافية عن البوه . ويبدو لي انه لم يطلع على هامشي على مادة « بوم » (ص ٥٤-٥٦) حيث ذكرت أن البوه هو البومة النسارية ، واتيت باسمه العلمي وذكرت وصفه وتوزيعه الجغرافي في العراق والعالم . فما المطلوب مني اكثر من ذلك ؟

الخطّف: قلت: يبدو لي ان الخطّف طائر اسطوري ، لكنني رجحت ان يكون من الطيور البائدة المتحجرة ، واستندت في ترجيحي هذا على اسمه اليوناني القديم وما يدل عليه ومعناه بالعربية (ص ٨٤) . اما ماذكره الكاتب من انه القشعام الاكلف (من النسور) واستشهد على ماذكره بما قاله ادور غالب ففيه نظر . اولاً: لانني لاادري على اي شيء استند ادور غالب في تحديده نوع النسر ، وثانياً: لان مواطن القشعام التي ذكرها هي غير مواطن الخطّف التي نقلها الدميري عن ارسطو طاليس .

الدقيش: نعم ، الدقيش هو الدغناش . وسندي في ذلك وصف الدميري اياهما وعلى قوله في الدقيش« ولعله (اي الدقيش) هو (اي الدغناش) ، ولكن تلاعبوا به فسموه تارة كذا وتارة كذا » (حياة الحيوان ١: ٢٢٧) . اما ما ذهب اليه ادور غالب فاجتهاد منه يؤجر عليه ، لكني لا اعلم سنده فيما ذهب اليه .

ابو زيدان: قال الكاتب« . . . في حين كل المصادر تشير الى انه نبات . . . . » واستشهد بقول ادور غالب الذي اعتبره عشباً من فصيلة الصليبيات وذكر اسمه الجنسي .

قلت: لقد نفيت في ص ١١٦ أن يكون« ابو زيدان » حيواناً اصلاً فضلاً عن أن يكون طيراً ، بل هو نبات . واستشهدت على ما قلته بما قاله الزبيدي من انه دواء معروف وانه اصل شجرة (تاج

العروس ٢: زي د) . وبعد طباعة كتابي باربع سنوات صدر في المغرب عام ١٩٩٠ كتاب « عمدة الطبيب في معرفة النبات » لابي الخير الاشبيلي ، وفيه ذكر هذا النبات حيث سماه « بو زيذان » بالذال المعجمة بعد الياء . قال الاشبيلي « قذقوجة: هو القوللية وهو البو زيذان . وهذا النبات ثلاثة انواع . . . (عمدة الطبيب ٢: ٦٦٠) . ومقولته هذه تعزز ما ذهبت اليه من انه نبات . فما وجه الخلاف الذي بيني وبين ادور غالب ؟ .

الصعب: نعم ، لم اهتد الى حقيقة هذا الطائر (ص ١٤٤) وبالتالي لم استطع تحديد جنسه ولا نوعه . اما تحديد ادور غالب جنس هذا الطائر واستشهاد الكاتب به فهو اجتهاد منه لا املك قبوله او رفضه ، لانني لا ادري ما سنده العلمي او اللغوي في ذلك .

الطبطاب: قال الدميري فيه « الطبطاب: طائر له اذنان كبيرتان » (حياة الحيوان ٢: ٩٥) . واستندت على وصفه هذا في احتمال ان يكون الطبطاب البومة الاذناء او البوهة لان كلًا منهما تتميز بطول ريش الاذنين (ص ١٥٤) . اما وصف ادور غالب للطبطاب فلم يشر من قريب او بعيد الى وجود اذنين كبيرتين او ريشتين كبيرتين كالاذنين له مما يخالف وصف الدميري اياه . وفوق كل ذلك فانه قال ان رأس الطبطاب اصلع تعلوه خوذة سوداء متقرنة . وهذا الوصف يدل على انه الطائر المعروف باسم « بوقير » الذي ناقشت موضوعه في ص ٥٦-٥٨ من كتابي .

القبيط: قلت في ص ١٩٦-١٩٧ من كتابي ان القبيط قد يكون هو الجراد الكبار الذي يعرف في لبنان باسم « قبّوط » الذي قد يكون مصحفاً عن « قبيط » . او لعله جنس الذعرة Anthus كما ذهبت الى ذلك سامية مراد في ترجمتها لكتاب « الطيور المصرية » حيث سمت هذا الجنس بالاسم « فيبط » الذي قد يكون تصحيفاً للاسم « قبيط » او العكس بالعكس . اما ما ذهب اليه ادور غالب فيدل على انه الطاووس الاسيوي Polyplectron ، ولعله مصيب في ذلك .

النعبول: نعم ، لم اهتد الى حقيقة النعبول . ولعل ادور غالب مصيب حين جعله من الصقريات ثم من الجنس Spilornis ، وان كنت لا اعلم سنده في ذلك .

ولعل السيد عادل قد لاحظ اثناء مطالعته الكتاب انني كثيراً ما ناقشت المرحومين امين المعلوف وانستاس الكرملي وغيرهما فيما ذهبوا اليه من تحقيق انواع الحيوان ولم آخذ بكلامهم على علاته اما بسبب ضعف اسانيدهم ان وجدت او بسبب عدم وجودها اصلًا . وهذا نفسه هو الذي فعلته فيما يخص اقوال الاستاذ ادور غالب في كتابه « الموسوعة في علوم الطبيعة » الذي كان جل استشهاد السيد عادل به .

اخيراً اجدد شكري للسيد عادل محمد علي الشيخ حسين على ملاحظاته التي ابداها والتي ارجو ان تكون ذات فائدة في والقراء .

• • • •